لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا

# المنهاج

إسلامية - فكرية - فصلية

منتدى المنهاج

## الإعلام وأثره في الهوية الثقافية ونظام القيم

محور

الشيخ محمد حسين النائيني ومشروعه السياسي الإصلاحي



العدد الخامس عشر - السنة الرابعة - خريف ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

# المنهاج

للإشتراك الإتصال
على الرقم ٠٣/٢١٠٥٣٤

تصدر عن مركز الغدير للدِّراسات الإسلاميةً

العدد الخامس عشر ـ السنة الرابعة ـ خريف ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩م



المشرف العام
السيِّد محمود الهاشمي

رئيس التَّحرير
الشيخ خالد العطية

المدير المسؤول
هاني عبدالله

المدير الفني
محمد مهدي الطريحي



■ ترخيص وزارة الإعلام ■
بموجب قرار رقم (٥٤) بتاريخ ٢ نيسان ١٩٩٦



**المراسلات**

باسم رئيس التحرير، على العنوان التالي:
ص. ب: ٢٤/٥٠ ـ بيروت ـ لبنان
تلفاكس: ٠٠٩٦١/١/٢٧٣٦٠٤
هاتف: ٦٤٤٦٦٢(٠٣)
E-mail: algadeer@inco.com.lb



**وكلاء التوزيع**

■ لبنان: الغدير للدراسات والنشر والتوزيع ـ حارة حريك ـ الطريق العام ـ بناية البنك اللبناني السويسري ـ هاتف: ٠١/٥٥٨٢١٥ ـ ٠٣/٦٤٤٦٦٢ ـ تلفاكس: ٠١/٢٧٣٦٠٤ ـ ص. ب: ٢٤/٥٠ بيروت
■ مصر: مؤسسة الأهرام، القاهرة، شارع الجلاء
هاتف: ٥٧٨٦١٠٠ ـ فاكس: ٥٧٨٦٠٢٣
■ المغرب: الشركة الشريفية للتوزيع والصحف، سوشبرس
هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٤٠٤٠٣١/٢ ـ ص. ب: ١٣/٦٨٣


■ الآراء الواردة في دراسات المجلّة ومقالاتها لا تعبّر بالضّرورة عن رأيها.
■ يخضع تسلسل المواد لإعتبارات فنية.
■ تستقبل المجلة الدّراسات والمقالات مكتوبة على الآلة الكاتبة، أو الحاسوب أو بخط واضح، وموثّقة وفق الأصول العلمية المعروفة، على أن توضع الهوامش في آخر المقالة.
■ لا تُعاد المقالات إلى أصحابها سواء نُشرت أم لم تنشر.

المنهاج
لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا

# محتويات العدد

## أول المنهاج



## دراسات



## محور

### الشيخ محمد حسين النائيني و مشروعه السياسي الإصلاحي

العدد الخامس عشر ـ السنة الرابعة ـ خريف ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩م



## منتدى المنهاج



## قراءات



## متابعات

دراسات

# الدَّولة السَّعدية في المغرب

السيد حسن الأمين*

كـان البـرتغاليُّون قد توسَّعوا في سواحل المغرب، فاحتلُّوا معظم المواقع على ساحـل الأطلنطـي، فطنجـة وأصيـلا والعـرائـش سقطت في أيديهم سنة ٨٧٦هـ = ١٤٧١م، وقبل ذلك كانوا قد احتلُّوا الدَّار البيضـاء التي كانت تعرف بـ (آنفا)[١] سنة ٨٧٤هـ = ١٤٦٩م، ثـم مـاسـة سنـة ٨٩٤هـ = ١٤٨٨م، ثـم أكادير سنة ٩١١هـ = ١٥٠٥م، ثم آسفي سنة ٩١٤هـ = ١٥٠٨م، ثمّ آزمور سنـة ٩١٩هـ = ١٥١٣م، ثمّ مـازغـان سنـة ٩٢٠هـ = ١٥١٤م، ثـم العجوز سنة ٩٢٥هـ = ١٥١٩م. وأخـذوا يغيرون على الداخل فيأسرون الرجال ويسبون النساء وينهبون القرى.

ثم ازداد عدوانهم فأغاروا على «تارودانت» على نهر السوس، وتوغَّلوا داخل البلاد حتى أرباض مراكش.

وهنا تلفَّت المغاربة يبحثون عن قيادةٍ تجمعهم في دفع البرتغاليين عن أرضهم، وتطلَّعوا إلـى زعيمٍ يؤلِّف شملهم ويوحِّد أمرهم في نضال الغزاة المعتدين. فكان أن اهتدوا إلى الأشراف السعديين في تفاصيل تأتي.

لقد احتلَّت إسبـانيـا مليلية[٢] وغساسة، واحتلت البرتغال سبتة والقصر، ولم يبقَ للمغرب في الشمال ميناء إلاَّ تطـوان، التي ساق القدر لها «بنو المنظري» الذين حطُّـوا فيهـا بعـد رحيلهـم مـن الأنـدلس، فكان في قلوبهم من الحقد على الإسبان الذين أجلوهم عن وطنهـم مـا يحفِّـزهم إلى الاستبسال في حرب هؤلاء ودفعهم عن تطـوان ومـا إليهـا، فكـانـوا ينطلقـون في البحر من تطوان لمصاولة السفن الإسبانية والبرتغالية.

---

* مؤرخ وباحث من لبنان.

وفي سنة ١٤٩٦م، وجّه البابا نداءً إلى المسيحيين ليوالوا فتوحاتهم، فزاد ذلك في الحماسة للتّوغُّل في المغرب، فتوالى سقوط الموانئ ميناءً بعد ميناءٍ.

على أن الإسبان جذبتهم الاكتشافات الأمريكيّة فانصرفت طموحاتهم إليها، وظل البرتغاليُّون متوجِّهين بكل حماستهم إلى المغرب.

وكان البرتغاليُّون أسبق إلى التوسُّع في المغرب من الإسبان، ومرَّ توسعهم في مرحلتين: مرحلة الاستيلاء على الثُّغور الشماليّة من سنة ٨١٨هـ = ١٤١٥م إلى سنة ٨٧٦هـ = ١٤٧١م.

والمرحلة الثانية مرحلة الاستيلاء على الثغور الغربيّة الجنوبيّة من سنة ٩٠٨هـ = ١٥٠٢م إلى ٩١٩هـ = ١٥١٣م.

ويمكن إجمال المرحلتين على الشّكل التّالي:

١ ـ سبتة[٣]: بسقوط الأندلس والتفكير بإجلاء المورسكيين، خشي الإسبان والبرتغاليّون من احتشاد المسلمين في الثُّغور المغربيّة الشماليّة والإعداد لهجمات على «إيبيريا»، لذلك سارعوا إلى احتلال هذه الثُّغور، فكان أن احتلت سبتة سنة ١٤١٥م.

٢ ـ القصر الصَّغير[٤]: استولى عليه البرتغاليُّون سنة ١٤٥٨م، وحاول المرينيُّون استرداده سنة ١٤٥٩م، فلم يفلحوا.

٣ ـ أنفا، أصيلا، طنجة[٥]: حاول البرتغاليُّون سنة ١٤٣٧م، الاستيلاء على طنجة فساقوا أسطولاً إلى سبتة ومنها إلى طنجة، فأحسن المرينيُّون الدفاع عنها بعد أن أنجدتهم تجمُّعات شعبية من الجوار، فانهزم البرتغاليون عنها.

وفي سنة ١٤٥٨م عاودوا المحاولة، وكانوا هذه المرَّة بقيادة الملك الفونسو الخامس، فعاودتهم الهزيمة، ولكنهم احتفظوا بالقصر الصغير.

وبعد عشر سنين، سنة ١٤٦٨م، كان البرتغاليُّون يغادرونها وهي خالية شبه خراب، فتركوها ليعودوا إليها بعد أربعين سنة.

أمَّا أصيلا فقد كانت سنة ٨٧٦هـ = ١٤٧١م تقاوم بضراوة القطع الثلاثمئة من الأسطول البرتغالي، والثلاثين ألف مقاتل المصاحبين له، ولكن قواها ضَعُفَتْ أمام

الاندفاع البرتغالي البحري البرّي الأقوى فدخلها البرتغاليّون فاتحين، وبعد أسبوع من فتحها امتدوا إلى طنجة، ولم تتخلّص منهم إلا بعد قرنين.

وكما انشغل الإسبان من قبل باستكشافات أمريكا، انشغل البرتغاليّون الآن باستشكاف أفريقيا، فلم يعاودوا فتوحهم في الشواطئ المغربيّة إلى بداية القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري). وفي ثلاثين سنة، وصلوا إلى أفريقيا الاستوائية سنة ١٤٧١م، وهي السنة التي احتلوا فيها أصيلا وطنجة. وفي سنة ١٤٨٢م، وصلوا إلى مصب نهر الكونغو، ثم إلى رأس الرّجاء الصّالح سنة ١٤٨٦م، فانفتح أمامهم طريق الوصول إلى الهند.

وهكذا مرّت ثلاثون سنة ونيّف بعد احتلال طنجة. وقبل أن يشرع البرتغاليّون في إنجاز المرحلة الثانية التي هي مرحلة احتلال الثغور الغربية الجنوبية التي تبدأ في آونةٍ قريبةٍ جداً من قيام الدولة السعدية[٦].

وتبدأ المرحلة الثانية باحتلال أكادير سنة ١٥٠٥م، ثم آسفي سنة ١٥٠٧م، ثم أزمور[٧] التي سقطت سنة ١٥١٣م.

وقد تمزّقت البلاد وانحلت وحدتها، ولم يستطع «الوطاسيون» الذين حكموا من (١٤٧١ ـ ١٥٣٣م)، وظلوا في فاس حوالى نصف قرن بعد قيام السعديين ـ لم يستطيعوا أن يعيدوا البلاد إلى وحدتها. وكان الأمر على هذا الشكل:

١ ـ مليلية وغساسة بيد الاسبان.

٢ ـ سبتة وطنجة والقصر الصغير وأصيلا وأزمور وآنفا وآسفي وأكادير وغيرها بيد البرتغاليّين.

وبقيّة البلاد تتنازعها سلطات محليّة متنوعة. فقد كان نفوذ الوطاسيين قد أصبح لا يشمل إلا جزءاً من القسم الشمالي للمغرب، كما انحصر نفوذ «هنتانة» بمراكش وضاحيتها. أما في الجهات الجنوبيّة فقد كان الولاة يتنازعون على السلطة في صراعٍ مسلحٍ[٨].

## السّعديُّون

هـم حَسَنيُّون مـن سلالة محمَّد النَّفس الزَّكيَّة. ولما نجحت دولتهم قامت لها خصـومـات، وعمـد خصـومهـم إلـى محـاولـة الطَّعن في أنسابهم، على ما اعتاده المتخاصمون في مثل هذه الظروف.

وكلُّنا نعرف المحـاولـة التـي قـام بها العباسيُّون بعد نجاح الفاطميين في إقامة الدَّولة ووصولهم بها إلـى مصر، وخوف العباسيين من استمرار التقدُّم، فلجأوا إلى الطَّعن في نسبهم ونفي صحَّة انتسابهم إلى فاطمة وعلي عليهما السلام.

وكذلك الشَّأن مع السَّعديين الذين ووجهوا بهذه المطاعن، فقيل إنَّهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذي تنتمي إليه حليمة السعدية مربِّية النَّبي صلى الله عليه وآله [٩].

وقيل إنَّهم إنَّما لُقِّبوا بالسَّعديين تيمُّناً لأنهم سعدوا بدولتهم[١٠].

علـى أنَّهـم فـي الحقيقـة من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام. وقد اعترف بهذه الحقيقة أحفاد الذين أنكروها. وقد أراد أحد هؤلاء الأحفاد أن يبرئ ذمة أسرته، فروى عنه الزياني صاحب «الترجمان المعرب»[١١] ما يلي:

«والذي سمعته من محمد بن عبدالله، رحمه الله، لما جرى ذكرهم، وذكرنا له الخلاف في نسبهم، قال: أسكت ولا تعد لهذه المقالة فإنَّهم إخواننا وبنو عمنا، وجدُّنا وجدُّهم واحد، وقريتنا وقريتهم بـ (ينبع) واحدة، يقال لها بنو إبراهيم وجدُّهم أحمد، خرج للمغرب قبل جدِّنا الحسن بنحو الثلاثين سنة، وهما أخوان، لكنَّهم لما ملكوا لم يعاملونا معاملة الإخوان، واقتصروا على التعظيم والاحترام، فكان سلفنا يحقدون عليهم إهمالهم لجانبنا... هذا موجب طعن سلفنا في نسبهم، وإلاَّ فالحق أحق أن يتبع».

علـى أنَّ الأمـر فـي الخصـومـة لم يقف عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى درجة التَّطـاول علـى أبرز رجلٍ في السَّعديين، وهو: المنصور بن محمد المهدي (١٥٣٩ ـ ١٥٥٦م) بأنَّه لم يكن ابناً شرعياً[١٢].

## قدومهم إلى المغرب

قدم السَّعديُّون إلى المغرب في أوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) في عهد بني مرين بطلبٍ من فريقٍ من أبناء «دَرْعَة»[١٣] التقوهم حين أدائهم مناسك الحجّ فدعوهم إلى الرَّحيل إليهم في المغرب. وليست لدينا تفاصيل عمَّن كان أول قادم منهم، وهل كان واحداً أو أكثر من واحد. على أن «الزياني» يذكر أنَّ جدهم أحمد بن محمد بن القاسم قدم إلى المغرب في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، كما يقول صاحب «السياسة والمجتمع».

والمعروف أنَّهم في الأصل من مقاطعة «ينبع» في الحجاز، وإذا كان الدَّرعيُّون قد التقوا منهم بمن دعوه إلى بلادهم، فيقتضي أن يكون هذا اللقاء في مكة لا في ينبع.

ويقول صاحب كتاب «المغرب عبر التاريخ»[١٤]: «يبدو أنهم (الدّرعيُّون) اتصلوا بهم وقت أداء مناسك الحج حتى يتيمَّنوا بوجودهم في استصلاح زروعهم وثمارهم».

ونشكُّ نحن في هذا السبب الذي يقول المؤلِّف إنهم دعوهم لأجله، فلا نحسب أن أولئك الأشراف كانوا خبراء زراعيين متخصصين في استصلاح الزروع والثمار، بحيث يستدعون من الحجاز إلى المغرب لأجل ذلك؛ بل نرى أنهم كانوا من أهل الفقه والصلاح والتقوى، فتوسَّم فيهم المغاربة الخير لاستصلاح العقائد والتمسُّك بها. والمؤلِّف يستعمل كلمة «تيمّنوا» بهم، واستصلاح الزروع والثمار لا يقتضي التيمُّن برجاله..

والمؤلِّف نفسه، حين يتحدَّث عن عوامل تأسيس الدَّولة السَّعدية، يقول: إنَّ من تلك العوامل كون السعديين «أشرافاً»، وإنهم لجأوا إلى إقناع الناس بشرف نسبهم حتى يجعلوا لقيام دولتهم أساساً دينياً... واستصلاح الزروع والثمار لا علاقة لأصحابه بشرف النسب ونجابة الأصل، ولا يتوسل الخبير به بهذه الوسيلة ليدعو إلى نفسه. بل إنَّ الذي يتوسل بها من يستدعى أو يدعو لنفسه إلى صلاح المجتمع والمكانة الرفيعة فيه والسيادة على أهله.

والمكان الذي حلَّت فيه الأسرة السعدية في المغرب هو قرية «تاكمَدارات» من نواحي درعة.

وجاء عهد أحدهم محمد بن عبد الرحمن الذي كان مقرئاً يحيا حياةً شعبيةً قوامها البساطة والتعفُّف، منصرفاً إلى العلم، متنقّلاً في سبيل أخذه من مكان إلى مكان. ولما شبَّ نجلاه أحمد ومحمد كان يصطحب أحدهما ذاهباً من تاكمدارات إلى أكادير ليقاتل مع المقاتلين زحوف البرتغال.

ويُروى أنه وجَّه ولديه للانضمام إلى الوطاسيين المدافعين للبرتغاليين، في حين كان هو يقوم باتصالاته السريَّة في الجنوب، وإن ولديه برزا كل البروز في المدافعة، ما جعلهما موضع تقدير السُّلطان الوطاسي أبي عبدالله محمد.

وظلَّ الأمر كذلك حتى استقرَّ البرتغاليُّون في شمال ناحية السُّوس[١٥]، وبنوا حصن «أگادير»، وبدا أنهم سيتوغَّلون في البلاد. ورأى السوسيُّون الخطر الداهم، ففاوضوا أحد صلحائهم محمد بن مبارك من «آقا»، في أقصى الجنوب السوسي لينصِّبوه أميراً عليهم، فتجتمع كلمتهم بقيادة موحَّدة في نضال البرتغاليين بعد أن تتم بيعته في المغرب كله[١٦].

ولكنَّ محمداً هذا رفض طلبهم وأشار عليهم بأن يولُّوا أمرهم محمد بن عبد الرحمن السعدي، ففعلوا، وتمَّت البيعة سنة ٩١٥هـ = ١٥١٠م في «تيدسي»، وهي قرية قرب «تارودانت»[١٧]، وتبعد عنها ٢٢ كلم جنوب غربيها، واعترف بهذه البيعة الشيوخ والقضاة والفقهاء من المصامدة. ولقب محمد السعدي بلقب القائم بأمر الله.

وافتتح محمد القائم عهده بالهجوم على البرتغاليين عند «أگادير»[١٨] فأحرز عليهم عدَّة انتصارات أدَّت إلى أن يستقدمه أهل «الشياظمة» و «حاحا» ليقود جيوش مقاومة البرتغاليين في ديارهم.

وكانت وفاة محمد سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م.

## خلفاء محمَّد القائم

تولَّى، بعد محمَّد القائم، ولده، ولي عهده، أبو العباس، أحمد الأعرج، فكان أوَّل ما عُني به هو إعداد الجيش، واستطاع أبو العبَّاس الانتصار على البرتغاليين في «آسفي»[١٩]، وإيقاف زحفهم نحو الدَّاخل.

وبدأ البرتغاليّون انسحابهم من الشواطئ المغربيّة في أواسط عهد أبي العباس الأعرج، وكان خروجهم من آسفي حوالى سنة ٩٣٣هـ = ١٥٢٦م، وتتابع خروجهم على دفعات، وإن ظلت لهم بعض المواقع.

وأخذت جيوش أبي العباس تزحف زحفاً سلمياً خلال الحرب مع البرتغاليين، بدعوى الاستنجاد على هؤلاء بالأمير الهنتاني (ناصر بوشنتوف) الذي أسرع فأمرهم بالنجدات، فكان أن دخلوا مراكش سنة ٩٣٠هـ.

وقد أدّى ذلك إلى اشتعال الحرب سنة ٩٣٥هـ، بينهم وبين الوطاسيين[٢٠] الَّذين رفضوا تدخلهم في مراكش، فتدخل العلماء والصلحاء، فتم الاتفاق على أن يعترف بسيادة الوطاسيين على الجزء الواقع في ما بين «تادلا» والمغرب الأوسط، وسيادة السعديين على ما بين تادلا والسوس. ولم يطل أمر هذا الاتفاق، بل نقضه السعديُّون وهزموا الوطاسيين في معركة حاسمة سنة ٩٤٣هـ = ١٥٣٦م.

على أنَّ صراعاً شبَّ بين أبي العباس أحمد وبين أخيه محمد المهدي بسعايات بعض رجال الحاشية، أدّى إلى انتصار محمد وخلع أبي العباس سنة ٩٤٦هـ.

وكان البرتغاليُّون لا يزالون يحتلون «أكادير»، وبذلك ظلُّوا يُهدّدون منطقة السوس، فاستطاع محمد المهدي الانتصار عليهم وإخراجهم من أكادير سنة ٩٤٨هـ، وكان لمدافعه أثر كبير في هذا الانتصار.

وقد كان لهزيمة البرتغاليين صدى بعيد في الأحداث التالية؛ إذ أدَّت إلى أن يأخذ البرتغاليون بالتخلي عن مواقعهم في المغرب موقعاً بعد موقعٍ.

ولمَّا كانت الدَّولة قد قامت على أكتاف أهل السوس؛ فقد رأى محمد المهدي[٢١] أن يتَّخذ من مدينة مراكش عاصمةً له، ليظل قريباً من أنصاره السوسيين، فاستقرَّ فيها سنة ٩٥١هـ، وظلَّت منذ تلك السنة عاصمة لهم حتى انتهاء دولتهم.

وتابع محمَّد فتوحاته عبر الشمال، فاستولى على مكناس[٢٢] سنة ٩٥٥هـ، بعد استيلائه على حصن قشتاله. ثم حاصر مدينة فاس، ودخلها سنة ٩٥٩هـ، مطارداً الوطاسيين في كل مكان.

ونجا من الأسر أبو حسّون علي بن محمد الوطاسي، فحاول أوّلاً الاستنجاد بالبرتغاليين والاسبان، فلمّا أخفق في ذلك، حاول الاستنجاد بالأتراك. فلما رأى ذلك محمد المهدي أسرع فغزا الأتراك في معقلهم في الجزائر.

وقبل أن يحلَّ العام ٩٥٧هـ، بدأ بحصار تلمسان، وكان بها يومئذٍ سلطان من بني عبد الواد تحت حماية الأسبان المباشرة، وظلَّ على حصارها تسعة أشهر إلى أن أدخلها في السيادة السعدية. وهنا جاءت نجدات تركيّة هزمت الجيش السعدي واستردَّ الأتراك تلمسان. وعندما حاول محمد المهدي معاودة غزوها فشل في ذلك فصرف النظر عن فكرة ضمّ المغرب الأوسط إلى الحكم السعدي، إذ كان عليه أن يجابه الأتراك والاسبان فضلاً عن الوطاسيين وبقايا البرتغاليين بالمغرب الأقصى.

أما أبو حسُّون؛ فإنه منذ سنة ٩٥٦هـ، انصرف إلى استرجاع دولته، ففاوض نائب الملك في إسبانيا، وشارل كان في المانيا، فلم يُجده ذلك شيئاً، فلجأ إلى البرتغاليين فأسعفوه بقوى بحرية، فلم يلبث أن أسره الأتراك في عرض البحر. ولكنه استطاع إقناع القائد التركي بالتحالف معه، فتألفت قوة جزائرية تركية لمحاربة محمد المهدي الشيخ، فلم يقو هذا على مدافعتها فسقطت «تازة»[٢٣] ثم فاس بيد الجيش التركي، فعاد الوطاسيُّون إلى حكم فاس.

وانتهى الأمر بقتل أبي حسون في معركة مع السعديين بتادلا[٢٤] أواخر سنة ٩٦١هـ، وبذلك قضي نهائياً على الدول الوطاسية.

ظلَّ محمد المهدي الشيخ مصمماً على عدم الاعتراف ـ ولو رمزياً ـ بالسلطة العثمانيّة على المغرب. ولما دعاه السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م) إلى الدُّعاء له على منابر المغرب بوصفه خليفة المسلمين ردَّ عليه بأنه لا يجيبه حتى يكون بمصر إن شاء الله.

ولكنَّ العثمانيين دبَّروا اغتياله في آخر سنة ٩٦٤هـ، وحملوا رأسه إلى البلاط العثماني...

وتولّى بعده ولده أبو محمد عبدالله الغالب، ولم تمض سنة على تولّيه الحكم

حتى هاجم الأتراك المغرب، ولكنهم فشلوا في هجومهم. ولم يعترف ـ كأبيه ـ بخلافة العثمانيين.

وهادن الأسبان، فناصروه أحياناً، وخذلوه أحياناً أخرى، وممّا أُخذ عليه ـ بحق ـ تسليمهم «حجر باديس» في الشمال، فاتخذوه مقراً لمراقبة الأتراك.

ومن أياديه البيض تجرده لمعاونة «المورسكيين» المسلمين في اضطهاد الإسبان لهم، وقد أرسل لهم موفداً، ولكن الإسبان اكتشفوه وقتلوه.

## الموريسكيُّون

المورسكيُّون: هم المسلمون الذين أُرغموا على التنصُّر بعد سيطرة الأسبان على الأندلس، وقيام «محاكم التفتيش» وفظائعها بعد سقوط غرناطة، فقد حاولت الكنيسة أول الأمر تنصير المسلمين بالوعظ والإقناع والتأثيرات الماديّة، فلم يغنها ذلك شيئاً، فانقلبت إلى العنف والمطاردة، فأغلقت المساجد وحظرت على المسلمين إقامة شعائرهم، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم، وفي شهر تموز سنة ١٤٩٩م (٩٠٥هـ) اتخذت وسائل فعالة لتنصير المسلمين، فجاء الكردينال «خمنيس» إلى غرناطة ودعا أسقفها «الدون تالا ڤيرا» إلى العمل الجدي في التنصير.

وقد فُرض التنصير على المسلمين فرضاً، ولم تحجم السلطات الكنسية والمدنيّة عن اتخاذ أشدّ وسائل العنف. ولم يستكن المسلمون إلى هذا العنف من دون تذمر ومقاومة، وسرت إليهم أعراض الثورة لا سيّما في الجبال. وقرّر مجلس الدولة بأن المسلمين أصبحوا خطراً على الدين والدولة، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية. وسرعان ما سرت الحميّة في المسلمين، فأعلنوا الثورة في معظم نواحي غرناطة وفي ربض البيازين وفي البشرات وغيرهما، واعتزم المسلمون الموت في سبيل دينهم وحريتهم، ولكنهم كانوا عزلاً، فكثر بينهم القتل والسبي، وقضي بالموت على مناطق بأسرها ما عدا الأطفال الذين هم دون الحادية عشرة، فقد حُوِّلوا إلى نصارى. وحمل التعلُّق بالوطن وخوف الفاقة وهموم الأسرة كثيراً منهم على الإذعان والتسليم، فقبلوا بالتنصير المغصوب ملاذاً للنجاة. وهكذا ذاع التنصُّر.

ثـم بعـد هـذا كلـه كـان مـن أظهـر التنصر من المسلمين يكتم الإسلام خيفةً، فشدَّدوا عليهم في البحث حتى إنَّهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك.

وقامت محـاكـم التفتيش (la inquiscion)، في مطاردة الموريسكيين، بأعظم دور وتركت في مأساتهم أعظم الأثر.

وعمَّ التَّنصُّر الموريسكيين، وصاروا يتكلَّمون ويكتبون القشتالية، غير أنَّهم لم يندمجوا بغيرهم.

وفي سنة ١٦٠٩م، تقرَّر نفيهم إلى المغرب وأن عليهم أن يرحلوا خلال ثلاثة أيام وأن يحملوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم.

ونفِّذ قرار النفي في كل مكان بصرامةٍ ووحشيَّة.

وفي هذا الوقت الذي نكتب فيه هذا المـوضـوع، وفي الثالث عشر من كانون الأول (ديسمبـر) سنـة ١٩٩٨ بـالـذات، عـرفنـا عـن عقـد مؤتمر في إسبانيا يتعلَّق بالموريسكيين نذكر عنه هنا ما يلي:

بدعـم مـن مستشـاريـة الثقـافـة والتعليم في مقاطعة مدريد، أقامت «مؤسسة الجنـوب للبحـوث» فـي الفتـرة مـن ٣ إلى ٥ كانون الأول (ديسمبر) الجاري، أوَّل مؤتمر علمـي حـول «السيـاسـة والموريسكيين في عهد البيت الملكي النمساوي في إسبـانيـا»، أي فـي الفتـرة مـا بين ١٥١٧ و١٧٠٠ ميلادية، أي بعدما يزيد قليلاً عن عقدين على سقوط غرناطة، والذي كان في رأي معظم المشاركين في المؤتمر مقدّمة لأحداث تـاريخيَّة فظيعـة تدلُّ على مدى الشر الذي كان يكمن في العقلية الأوروبية المسيحيـة تجـاه الإسـلام والمسلمين، لأن الموريسكيين في رأي معظم الباحثين لم يكونوا سـوى أبنـاء الأمة الأندلسيَّة التي اختلطت فيها الدماء العربيَّة والبربريَّة الوافدة مـع الفتـح الإسـلامـي والـدمـاء الأصيلـة لسكـان تلـك البـلاد قبـل أن تقـوم دولـة الأنـدلـس. . . تلك الأحداث التي تكرَّرت في عالمنا المعاصر في أشكال أخرى مثل ما حدث في البوسنة والهرسك ويحدث الآن في كوسوفو.

شارك في هـذا المؤتمـر العـديـد من المستعربين الأوروبيين المتخصصين في الـدراسات المـوريسكيَّـة، مثـل ألفـارو غالميث دي فيونتس ورودولفو خيل غيرماو

ومـاريـا خيسـوس روبيرا ماتا ولويس فرنانديث برنابيه بونس من اسبانيا، وجان بيير مولينات مـن فرنسـا، وانطونيو دياز فارينا وإيزابيل ريبيرا مينديز ولويس كرميلو من البرتغال.

من الجانب العربي شارك في المؤتمر عدد من الباحثين المتخصّصين، منهم: جمال عبد الكريم من مصر، وعبد الجليل التميمي وعبد الكريم سلامة من تونس، ومحمد بن عزوز حكيم وحسين بوزينب وفاطمة رشيدي من المغرب، ومحمد عبده حتم الله من الأردن.

تناولت البحوث التي ألقاها المشاركون مختلف جوانب حياة الموريسكيين في ظلّ السياسة المسيحيّة التي مارسها ملوك اسبانيا الذين ينتمون إلى البيت الملكي النمساوي، والتي قامت خلالها محاكم التفتيش التي انتهت أخيراً بطرد ما تبقّى من المـوريسكيـين في اسبانيا، بعد محاولاتهم استرداد حقوقهم الشرعية كونهم مواطنين ولدوا وتربُّوا على أرض الأندلس قبل أن تكون هناك دولة تسمّى اسبانيا.

مـن بيـن البحـوث التـي نُـوقشت، في هذا اللقاء، بحث الدكتور جمال عبد الكريم، نائب رئيس مؤسسـة الجنـوب والأستاذ بجامعة القاهرة، الذي أكّد في بحثه على أنَّ العـودة إلـى تنـاول أوضـاع الموريسكيين في تلك الفترة هدفها الكشف عن جذور الأوضاع التي تشهدها مجتمعات إسلاميّة أوروبيّة معاصرة، عاشت لسنوات طويلة تنشد السلام مع جيرانها من المجتمعات المسيحيّة، ولكنها واجهت في النهاية تطبيقـاً جديداً ومعاصراً لمحاكم التفتيش التي شهدها أخوة لهم على أثر سقوط دولة الإسلام في الأندلس.

تلـك المحـاكـم لـم تكن سوى أداة سياسيّة للقضاء على شعبٍ بكامله لمجرَّد وجـود تفـرقـة فـي الإيمان العقائدي، ليكون الموريسكيون أول شعبٍ يواجه عملية تطهير عرقي في أوروبا طوال تاريخها، لأنَّ الموريسكيين ـ في رأي الباحث ـ كانوا إسباناً مثلهم مثل أي إسباني آخر، وكل ما كانوا يتميّزون به هو اختلاف عقيدتهم عن عقيدة ملوك اسبانيا الجدد الذين شنُّوا على الأندلس حرباً صليبيّة.

من أبرز البحوث التي قدَّمت جديداً في هذا المجال، وحاولت أن تلقي الضوء

على محاولات الموريسكيين تطبيع علاقاتهم مع المسيحيين في ظلِّ القوانين الجديدة التي كانت محاكم التفتيش تطبّقها عليهم، جاء بحث «المؤامرات الغرناطية في الكتب الرصاصيَّة» للباحث الإسباني لويس فرنانديث بونس الذي تناول تلك المحاولات الموريسكية لتطبيع تلك العلاقات من خلال الكتابات السريَّة التي تمَّ العثور عليها في «الساكرومونتي»، تلك الكتابات التي حاولت أن تمزج المعتقد الإسلامي بالمعتقد المسيحي لتقدم للموريسكيين شكلاً يجعلهم يحافظون على ديانتهم الإسلامية الحقيقيَّة في الخفاء، وفي الوقت نفسه يظهرهم أمام المسيحيين بمظهر «المتنصرين» خصوصاً بعد فشل محاولاتهم التمرد على الأوضاع الجديدة.

أكَّد الباحث أنَّ ظهور هذه المخطوطات فتح في المجتمع الاسباني نقاشاً واسعاً توصَّل المشاركون فيه إلى نتائج متعارضة، وفي أحيان كثيرة متناقضة، إذ كان بعضهم يرى أنها محاولة لإيجاد مخرج «مثالي» للمتنصّرين الجدد لمواجهة حياتهم الجديدة في ظل معتقد جديد أجبرتهم عليه الأوضاع السياسيَّة والاجتماعيَّة الناتجة عن هزيمتهم على أيدي الملوك الكاثوليك.

لكنَّ الباحث يؤيّد الرأي القائل أنَّ هذه الكتابات كانت تحاول أن تقدِّم وجهة نظر إسلاميَّة يمكن أن تؤثر في الرأي العام الإسباني المسيحي، لأنَّ مخطوطات «الساكرومونتي» وغيرها من المخطوطات التي أمكن العثور عليها في ما بعد، مثل «إنجيل برنابا» الشهير، الذي يتبنَّى وجهة نظر إسلاميَّة بحتة في ما يختصُّ بأن النبي محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء، وتطابقه مع القرآن الكريم في العديد من المسائل منها علامات «قيام الساعة».

كل هذه الكتابات الموريسكية، في رأي الباحث، كانت تسير باتجاه واحد مخطَّط له بشكل جيّد من أجل تغيير رياح المواجهة مع المسيحيين، ومحاولة تبديل وضع الموريسكيين فيه بحصولهم على حقوق ومكانة تسمح لهم بمواصلة الحياة على أرضهم التي ولدوا ونشأوا عليها. وأشار الباحث إلى أنَّ رأيه الخاص في هذه المسألة هو أنَّ ذلك المخطَّط، لو كتب له النَّجاح، لأمكنه أن يغير تماماً شكل المجتمع المسيحي الذي أجبر الموريسكيين في النهاية على الرحيل إلى المغرب وشمال أفريقيا.

وتمـامـاً، كمـا يحـدث فـي المـؤتمـرات التـي يلتقي فيها باحثون من الشَّرق والغرب، حدث خلافٌ شديدٌ بيـن عـددٍ مـن الباحثيـن حول كلمة «الاستعادة» التي يستخدمها الباحثون الأسبان عند حديثهم عن الحرب الكاثوليكيَّة التي انتهت بسقوط غرنـاطـة وطـرد المسلميـن مـن الأنـدلس. فقد وردت هذه الكلمة كثيراً على لسان الباحث الاسباني ألفارو غالميث، ما دعا الباحث المغربي الدكتور حسين بوزينب إلى التدخُّل محاولاً أن يبيِّـن أن تلـك الكلمة خاطئة ويجب عدم استخدامها لأنَّ مسلمي الأندلس كـانـوا يشكِّلون أمة اسبانية أصيلة ولم يكونوا دخلاء على هذه الأرض، كما يحـاول أن يصـوِّر بعـض البـاحثيـن المسيحييـن، وأن الحـرب التـي شنَّهـا الملـوك الكاثوليك لم تكن سوى حرب استعمارية قام خلالها شمال اسبانيا باحتلال الجنوب الذي كان في ذلك الوقت يمثل الأندلس الإسلاميَّة.

خـلال هـذا الحـوار، أعـرب عدد من الباحثين الأسبان عن تأييده لوجهة نظر الباحث العربي، ومنهم الاسباني رودولفو خيل غيرماو، وطالبوا بمراجعة حقيقيَّة لبعض الكلمات التي يجري استخدامها في البحوث الخاصة بالأندلس والتي لها أصول مسيحيَّة وتعبِّر عن وجهة نظر مسيحيَّة، ولا تعبر عن حقيقة الحدث التاريخي.

مسوِّغ قيام الدَّولة السعديَّة

وفـي سنـة ٩٨٠هـ (١٥٧٣م) تـوفِّـي عبـدالله الغـالـب، فتولَّى بعده ابنه محمد المتوكل، ولكنَّ أمره لم يطـل فقـد ثـار عليـه عمَّـاه أحمـد وعبد الملك، واستنجدا بالسلطان التركي فأحالهما إلى والي الجزائر الذي أرسل جيشاً لقتال المتوكل، فهُزم المتوكِّل سنة ٩٨٣هـ، في وادي سبو، ثم هزم مرة ثانية في وادي الريحان قرب سلا، الأمر الذي فتح أمام عمه عبد الملك أبواب فاس في أواخر سنة ٩٨٣هـ، فتمَّت بيعته فيها في الأيام الأخيرة من شهر ذي الحجَّة سنة ٩٨٣هـ، وقد اهتم عبد الملك بأمور الجيش الذي تألَّف من عناصر عربية وبربرية وأندلسية وتركية، وأسَّس أسطولاً أرسى قطعه على موانئ الشمال والعرائش وسلا.

وقد حاول المتوكل أن يستقر في مراكش إلا أنه لم يستطع الثبات، وختم حياته أسوأ خاتمة بالتجائه إلى البرتغاليين وملكهم «دون سباستيان» مستنصراً به.

ويبدو من مراقبة أحداث تلك الفترة أن المطامع البرتغاليّة بالمغرب، وبما وراء المغرب، لم تكن خافية، وكان لا بد من التيقُّظ لها والإعداد لردِّها عندما تثور، ولم يبد أن المتوكل كان متنبِّهاً لتلك المطامع، أو أنه كان في سبيل الإعداد وتجميع القوى لليوم الذي كان يلوح أنه لا محالة آت.

وقد كان مسوِّغ قيام الدولة السعديّة في الأصل هو وجود الخطر الخارجي الذي يهدِّد الوطن أشد تهديد.

فقد كان للاحتلال الصليبي للسواحل المغربيّة صدى عميق الأثر في نفوس الشعب، فقامت دعوات إلى حمل السلاح واقتلاع المغتصبين مما احتلُّوه على الشاطئ المغربي، في حين كانت البلاد غارقة في فتنها الداخلية.

ومن هنا كان التطلُّع إلى قيادة مخلصة حازمة توحِّد البلاد وتحارب المدَّ الصَّليبي الزَّاحف، وفي ذلك يقول الشاعر الهبطي:

فرحم الله أميراً قد سلك ... نهج الهدى وما سواه قد ترك
كما به أخذ الحدود والحقوق ... والأمر في حرز الديار والطرق
والصّون للثُّغور حيث الكفار ... دمرهم ربي سبوا للأبكار
فإن رأى أمراً يضر بالمسلمين ... سدده ولم يكن في الغافلين
حنانه أيضاً على الرعيَّه ... مثل الأب المهموم بالذريَّه
ما أحوج الورى لذا شر زمان ... إلى إمام قائم بالقرآن
فجد علينا يا عظيم المنه ... بمن يقوم في الورى بالسنَّه
أمنن علينا بالإمام العادل ... يهد بنيان الخنا والباطل
حتى نرى الحق المبين ظاهرا ... وكلنا به يصير ظافرا

وعندما وجدت هذه القيادة في السعديين، وقامت دولتهم على هذا الأساس، لم يكن من الجائز السكوت على من يبدو مشكوكاً في تصرُّفاته وتوجهاته.

لقد قامت هذه الدولة وشعارها حماية البلاد من البرتغاليين الذين لم يخفوا في يوم من الأيام طموحاتهم في الفتح والسيطرة والتقدم إلى أقصى البلاد الإسلامية. فإذا لم يبال مالك الأمر بهذا فلا بدَّ من التخلُّص منه...

هـذا مـا يلـوح للمطالع المتتبع. لذلك صمّم الأخوان عبد الملك وأحمد على خلـع ابـن أخيهمـا (المتـوكِّـل) غير المبالي بما يجري وغير المتحفِّز لإنماء القوى المغربية التي تستطيع إيقاف البرتغاليين عندما يمشون لاحتلال المغرب.

وقد رأينا كيف أن الأخـوين لجآ لأكبر قوة إسلامية في ذلك الوقت، وهي قوة العثمانيين، للاستنصار بها، مع علمهما بمطامع العثمانيين بالمغرب. ولكنهما قابلا بين احتلال برتغالي واحتلال عثماني، فلم يتردَّدا واستنجدا بالعثمانيين.

وقد صحَّت فراسة الأخوين بابن أخيهما، فلم يتورع عن الاستنجاد بالبرتغاليين وملكهـم «دون سباستيان»، واتفق معه على تقاسم المغرب، بأن يكون للبرتغاليين: الساحل المغربي ويكون له الداخل.

ولقـد رأينـا كيـف أن عبـد الملك عمل أول ما عمل على تقوية الجيش البري وتقوية الأسطول البحري، وكيف أنه لم يضع أي وقت في التفكير بغير ذلك.

## معركة وادي المخازن الحاسمة

لم يكـن «دون سبـاستيـان» بحاجة لمن يحرِّضه على غزو المغرب، فقد كان ذلك من تصميماته الأكيدة، ولم تكن مطامعه محدودة بالمغرب، بل كان يتطلَّع إلى ما وراء المغرب للوصول بفتوحه إليه.

ولم يكن انضمام المتوكِّل إليه هو العامل على إنفاذ الغزو، وكلّ ما كان لهذا الانضمام من أثر، هو أنه ثبَّته في التَّوجه إلى أفريقيا بعد أن كان قد أهملها من سبقه مـن الملـوك، لا سيمـا الأميـر جـون الثـالـث الذي انصرف بكل جهده نحو أمريكا الجنوبية.

على أن كبار حاشية سباستيان والنبلاء لم يكونوا من رأيه، بل كانوا معارضين لهذا التوجُّه، ولكنَّه أصرّ عليه وأصرّ على أن يقود الغزو بنفسه. فتوجه من قادس إلى طنجة، ثم أبحر قسـم مـن الجيـش إلـى أصيلا التي كان البرتغاليون قد أخلوها سنة ١٥٥١، ثم عادوا إليها في آخر سنة ١٥٧٧م، أما الجيش البري فقد توغل معظمه في المنطقة الشمالية متجهاً من طنجة نحو القصر الكبير.

وكان المتوكِّل في صميم القيادة البرتغاليّة ماشياً معها لاقتسام بلاده بينه وبينها.

ولهذا قلنا من قبل: إنَّ فراسة عبد الملك وأحمد في ابن أخيهما لم تخطئ، وأنهما حين عملا على إطاحته كانا يخشيان على مصير الوطن. وها هو اليوم يحقق تلك الفراسة.

لقد بولغ في عدد الجيش المهاجم، كما بولغ في عدد الجيش المدافع، وساهمت في المبالغة كلٌّ من المصادر الأجنبية والمصادر العربية. فقد قيل إنَّ عدد الجيش البرتغالي كان ١٢٥ ألفاً وقيل مئة ألف. وهناك من أنزله إلى ٦٠ ألفاً، ومن زاد في هذا الإنزال فجعله ١٤ ألفاً.

وصاحب كتاب «المغرب عبر التاريخ»[٢٥] يرى أن أوسط التقديرات هي أن الجيش البرتغالي كان ما بين ٤٠ و٥٠ ألفاً وأن الجيش المغربي كان حوالى ٦٠ ألفاً وأن عدد مدافع كل من الجيشين يكاد يكون متساوياً، فمدافع البرتغاليين كانت ٣٦ مدفعاً، ومدافع المغربيين تقارب هذا العدد.

وبهذا نعلم الجهد الذي بذله عبد الملك في إعداد الجيش وتسليحه، وأنه كان جديراً بالمهمّة التي ندب نفسه لها عندما صمّم على إسقاط ابن أخيه المتوكل.

نفّذ الجيش البرتغالي خطّته بأن عبر ـ كما قلنا ـ إلى طنجة ومنها مشى إلى أصيلا[٢٦] فاحتلّها في تموز سنة ١٥٧٨م، وعسكر فيها. فقرّر عبد الملك أن لا يهاجم الجيش المهاجم وأن يفسح له في المجال للتوغُّل في البلاد بعض التوغل، فيبتعد بذلك عن المواقع التي يمكن أن تصلها الإمدادات بسرعة.

ويُجمع المؤرخون على أنه كان في الجيش البرتغالي متطوّعون اسبان وفرنسيون وإيطاليون وألمان وقليل من المسلمين من أنصار المتوكل.

ويصف المؤرّخ المغربي(الوفراني) حال الناس يومذاك قائلاً: «وكان خروج النَّصارى في هذه الوقعة بجيوش حافلة وجموع عديدة يقال: إنه زهاء مئة ألف وخمسة وعشرين ألف مقاتل، وقصدوا هلاك المغرب وحصر المسلمين وإدارة رحى الهوان على أهل الدِّين. فعظم ذلك على الناس وامتلأت قلوبهم رعباً وصدورهم كرباً وبلغت القلوب الحناجر واشتعلت على أهل العقول نيران الهواجر».

وأخيراً تقدَّم سباستيان بجيوشه نحو قصر كتامة عابراً قنطرة وادي المخازن. وهنا عمد عبد الملك إلى عمل عسكري في غاية الاحكام، فلم تكد الجيوش البرتغاليّة تعبر القنطرة حتى أرسل عبد الملك كتيبة من الخيل دكّت القنطرة دكاً لئلا يستطيع البرتغاليون معاودة عبورها في حالة هزيمتهم وليمكن استئصالهم كل الاستئصال.

وكان جيش السّعديين يتألَّف من بربر وعرب وأتراك، تصحبه نخبة من الفقهاء والصُّلحاء انضموا إليه تنفيذاً لفريضة الجهاد، وتحميساً للمقاتلين.

وبالرغم من أنَّ عبد الملك قد مرض خلال التعبئة مرضاً شديداً، فقد أصرّ على الحضور بنفسه في القيادة كما حضر أخوه أحمد.

ومضى البرتغاليُّون تتقدمهم المدفعيَّة لحماية المشاة وتحيط بهم الخيَّالة من الجناحين، وانتظم المشاة في شكل مربَّعات متماسكة.

أمَّا الجيش المغربي فقد استفاد عبد الملك في تنظيمه من الطريقة الاستراتيجيَّة العثمانيَّة في الحرب؛ حيث كان قد شارك العثمانيين في حروبهم بالجزائر وتونس، فاعتنى بالرماة وسلَّحهم على النمط الانكشاري، كما اعتنى بالفرسان. وكانت له معامل للسلاح والذخيرة في فاس ومراكش وتارودانت، معتمداً في إنتاجها على معادن البلاد لا سيما النحاس.

ووقع الصِّدام يوم آخر جمادى الأولى سنة ٩٨٦هـ (١٥٧٨م)، ويصف المؤرِّخ المغربي صاحب «نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي» الصدام بقوله: «... ثم زحف عبد الملك إلى العدو بجيوش المسلمين وخيل الله المسوَّمة، وانضاف له من المتطوعة كل من رغب في الأجر وطمع في الشهادة، وأقبل الناس سراعاً من الآفاق، وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل، فاتفقت الفئتان، وزحف بعضهم إلى بعض وحمي الوطيس واسود الجو بنقع الجياد ودخان مدافع البارود، واشتد القتال وكثر الضرب والطعن واستمرَّ النزال. فلما قامت الحرب على ساقٍ والتفَّت الساق بالساق توفي عبد الملك... ولما مات عبد الملك لم يظهر الذي كان سايس المحفة موته، فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو ويقول للجند: الملك يأمركم بالتقدُّم. وعلم

بموته أخوه فكتمه... ولم يزل كذلك، والنّاس في المناضلة ومداناة القواضب واحتساء كؤوس الحمام إلى أن هبّت على المسلمين ريح النصر... وقتل الطاغية البرتغالي.. ولم ينج من الروم إلا عدد نزر وشرذمة قليلة، وبحث في القتلى عن محمد المتوكل فوجد غريقاً في وادي لكوس».

ولما وقعت الهزيمة تراجع المنهزمون نحو النهر، فوجدوا القنطرة قد اندكّت، فتراموا إلى النهر[٢٧] فغرق كثير منهم وفيهم دون سباستيان نفسه.

وسمّى البرتغاليون هذه المعركة «معركة الملوك الثلاثة»، لأن ثلاثة ملوك قادوها وماتوا فيها، وهم: عبد الملك، ودون سباستيان، والمتوكل. ويسميها المغاربة معركة وادي المخازن.

## آثار معركة وادي المخازن

معركة وادي المخازن من المعارك الفاصلة في التاريخ، كان لها أثرها البعيد لا على المغرب وحده، فقد حطّمت الدولة البرتغاليّة وفكّكت أوصالها، ما أتاح للملك الاسباني فيليب الثاني أن يضمّها إلى اسبانيا، كما رفعت من شأن المغرب وأبرزته قوة نافذة لا بدّ من حسبان حسابها، فتواردت إليها البعثات الأجنبية طالبةً ودّها.

وغدا للجندي المغربي رهبة في نفوس الأوروبيين برزت في العروض المسرحيّة التي نظمت بعد سنة ١٥٩٠م في أوروبا، كما يبرز ذلك في شخصيات شكسبير وجورج بيلي مؤلف مسرحية «معركة القصر».

وأصبح اسم عبد الملك ملازماً للشجاعة والإقدام[٢٨]. وقد أشار إلى ذلك الكاتب الفرنسي mantaigne، كما اتُّخذ من مقاومة عبد الملك لمرضه مثالاً حياً لتفوُّق الفكر على الألم الجسدي.

وكما شاع الاضطراب والذُّعر من الهزيمة في أوروبا، فقد عمّ السرور العالم الإسلامي، وكان من إصداء النّصر في الأدب العربي شعر ونثر كهذا الذي نظمه الشاعر داود بن عبد المنعم الدغوتمي من قصيدة طويلة يقول فيها:

أتى سادراً يختال في غلوائه ... وفي صدره للدِّين غلي الضَّغائن

يســـرب نحـــو المغـــربيـــن جنـــوده
كمثـل الـدبـا عـن مـاخـرات السفـائـن
ومـــا قصـــده إلا انتهـــاك حـــريمـــه
ودك صيـاصيـه وبعـث الـدَّخـائـن
وقـــود أســـارى المسلميـــن لأرضـــه
يقـــدمهـــم للصلـــب مثـــل القـــرابـــن
فـــذا مكـــره والله يمكـــر مكـــره
بـــه، إذ حـــداه نحـــو تلـــك الأمـــاكـــن
تجمَّـــع جنـــد الله مـــن كـــل وجهـــةٍ
وقـــد غـــصَّ مـــن مـــدينـــه كـــل دائـــن
مـــن الملـــك المقـــدام فـــالعلمـــاء فـــا
لشيـــوخ أولـــي التقـــوى وأهـــل البـــواطـــن
هنـــالـــك نصـــر المـــؤمنيـــن مـــؤزر
علـى كـل ذي كفـر تهجـم، ضـاغـن
وذلـــك يـــوم مثـــل بـــدر وصنـــوه
حنيـــن بـــأيـــدي المـــؤمنيـــن الميـــامـــن

ويقول مؤلِّفا كتاب الأدب المغربي عن معركة وادي المخازن: «كان السعديُّون قد تولّوا أمر المغرب، ولديهم جيش منظَّم مدرَّب على أصول الحرب الفنية يندر وجود مثله في ذلك الحين عند الممالك المعادية كالأسبان والبرتغاليين، وهم إذ ذاك أعظم شعوب أوروبا بأساً وقوةً».

وينقل المؤلِّفان: «إنَّ هذه المعركة لم تكن حاسمة بالنسبة لمراكش وحدها، وإنَّما كانت حاسمة أيضاً بالنسبة للقارة الإفريقية كلِّها، كانت معركة وادي المخازن بـالنسبـة للمسلميـن فـي إفريقيـة مـن حيـث الأهميـة مثل معركة (لاپواتيه) بالنسبة للمسيحييـن فـي أوروبـا... فقـد استـأصـل الجيش المغربي الجيش البرتغالي... وأقبرت هذه المعركة أحلام البرتغاليين إلى الأبد، فأصبحوا بعد ذلك دولة لا شأن لها خلف حدودها بعد أن كانت أوّل دولة».

وجاء في كتاب «المغرب عبر التاريخ» عن نتائج انتصار وادي المخازن:

«وكتـب المنصـور[٢٩] إلى الخليفة العثماني بالفتح وقصدته الوفود مهنِّئة من القسطنطينية ومصر والجزائر وتونس وفرنسا واسبانيا...».

إلى أن يقول:

«... وكـان لهـذه المعـركـة آثار بعيدة المدى، ليس فقط بالمغرب، بل في العالم الإسلامي والمسيحي أيضاً. فبالنسبة إلى المغرب، استعادت الوحدة الوطنيّة قوتها طيلة حكم المنصور السعدي، كما فرضت الدولة الحاكمة هيبتها، وأمكن لها

أن تحقّق أعمالاً عمرانية وتوسع نطاق النشاط الاقتصادي، وتبذل جهوداً موفّقة في الميدان الفكري بموازاة العمل الشعبي الرائع.

أمّا بالنسبة للعالم الإسلامي فقد اغتبط المسلمون كافة بهذا الانتصار العظيم الذي اتّخذ إلى حدٍ ما طابعاً دينياً، فماذا يكون مصير المغرب لو سحق جيشه في هذه الوقعة؟ لقد كان من المرجّح أن يعمد البرتغاليّون إلى سلوك سياسة التنصير قهراً ومن دون هوادة، كما كان من غير المستبعد أن يوسعوا أطماعهم شرقاً فيحتلوا المغربين الأوسط والأدنى وقد يتعاونون في ذلك مع أجناس أوروبية أخرى ليرغموا الأتراك على الانسحاب منهما.

أما بالنسبة للأوروبيين، فقد تحولت كلياً نظرة الازدراء التي كانوا ينظرون بها إلى المغرب وسكانه وصارت دولهم تتنافس في خطب وده وتتقرّب إليه بعقد المعاهدات والتسهيلات التجاريّة، وتبعث إليه بالسفراء محمّلين بالهدايا إلى السلطان، وتوقّفت الأطماع السياسية الأجنبية لأمد طويل عن الجرأة على سيادة المغرب.

## تَشَيُّع السَّعديِّين

السعديّون الحسنيّو النَّسب كانوا شيعة، ويبدو تشيُّعهم واضحاً في الكثير من معالمهم، فالملك السعدي أحمد المنصور (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣) أرسل رسالة إلى أحد الملوك المجاورين، أوردها صاحب كتاب «المغرب عبر التاريخ»[٣٠] نأخذ منها مطلعها وهو ما يلي:

«سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد، حمد لله مسهل المرام وميسر أسباب الكمال والتمام، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيع الأنام المبعوث بالحنيفية السمحاء إلى الخاص والعام، والرضى عن آله الأئمة الأعلام وخلفاء الإسلام وعن أصحابه الذّابين عن كلمته بالسنان والحسام...». (إلى آخر ما جاء في الرسالة).

وهل من صراحة في التشيّع أقوى من قوله: «آله الأئمة الأعلام وخلفاء الإسلام».

كما أنَّ أحمد هذا قال في رسالة أخرى أرسلها إلى «سكية إسحاق» يدعوه فيها

إلى الخضوع لسلطة ملك المغرب، أوردها هي الأخرى[٣١]، وهي كسابقتها تنضح تشيُّعاً أصيلاً.

وكما كان تشيُّع «الموحِّدين» لا يبرز في شيء كما يبرز في شعر شعرائهم، كذلك الحال في «السعديين».

فالشاعر عبد العزيز القشتالي[٣٢] (٩٥٧ ـ ١٠٣٢هـ) يمدح المنصور السعدي مشيراً إلى فتح السودان فيقول في ما يقول:

| | |
|---|---|
| يعنو إلى المسنون من أسيافه | قلب المعاند وهو قلب واجب |
| أيروم أحزاب الضلال سفاهة | غلباً لحزب الله وهو الغالب |
| صبت على السودان منه صواعق | فهمت على إسحاق منه مصائب |
| يروي عن المنصور فيه (محمد) | ما أسندته إلى (الوصي) مناسب |

وهل أبلغ في إظهار التشيع من تلقيب علي بن أبي طالب بلقب «الوصي»!؟

وجاء في كتاب «الأدب المغربي»، وهو يوازن بين شعراء الدول الشيعية الثلاث: الفاطمية والموحدية والسعدية خلال حديثه عن شاعر السعديين «أبي عبدالله الهوزالي»[٣٣]:

«إن مدح المنصور السعدي كان ينال منه الرضا إذا ما اعتمد على تلك الجزالة التي تصل في بعض الأحيان إلى درجة الجلبة، وهي جزالة سبق أن أغرم بها الخلفاء الفاطميُّون في شاعرهم ابن هاني، ثم أغرم بها الخلفاء الموحِّدون في شاعرهم ابن حبّوس ومن أتى بعده مثل الجراوي والسلمي ثم الخطابي. ولا غرو فإن هؤلاء جميعاً من مدَّعي الفاطمية والخلافة، وكانوا جميعاً بذلك الطموح الذي حقق مراميه الفاطميُّون في الشرق بعد الغرب، ثم وجدنا الموحِّدين يحلمون بتحقيقه في الشرق بعدما أحرزوا الفتوح العظيمة في الغرب، وكذلك وجدنا السعديين يحلمون بهذه الأحلام بعدما مدوا فتوحاتهم التي انتهت أيام المنصور إلى أواسط إفريقيا السوداء».

وللهوزالي قصيدة في مدح المنصور بعد أحد فتوحاته هي من أعرق شعر الشعراء في التشيُّع، وفي الدلالة على ما كانت عليه دولة السعديين من إعلان به وتمسُّك بشعاراته، ومنها:

فتوح جنى المنصور في عرصاتها ... أزاهر نصر يانع من غصونها
ولا غصن إلا من قناة قويمة ... ولا زهر إلا من شباة سنانها
ولا روض إلا من حماة كماتها ... ولا سقي إلا ما جرى من طعانها
كتائب منصورية قذفت بها ... مرام نأت عن أرضها ومكانها
تهيم بها الأرواح حتى كأنها ... تناغي عزيف الجن في دورانها
وتطوي بساطاً أرضها بقنابل ... سنابكها اطوى لها من بنانها
سحائب من مرّاكش قد أثارها ... صبا النصر يحدوها حراء عنانها
يؤمُّ بها الصحراء يرتاد أمة ... سدى أنفت آسادها من عرينها
فكم ملك قد رامها فتعصبت ... عليه ومحت في مجون حرانها
فلما همت تلك السحائب فوقها ... أفاقت وهبت من كرى هيمانها
إلى الملك الشهم الذي لقحت به ... لقاح الحروب بكرها وعوانها
إلى ابن البتول المجتبى من نجارها ... وفرع العلا المختار من حرانها
إلى ابن الهدى وابن الندى وردى العدا ... وفخر بنات المصطفى وهجانها

وما نذكره من الشعر لم نذكره بعد استقصاء وتتبع، لأنَّ هذا الاستقصاء وهذا التتبع متعذِّران علينا الآن، كما كانا متعذرين قبل الآن لبعدنا عن الخزائن المحتوية على ذخائر التراث التي خلفته تلك الدول وعدم استطاعتنا الوصول إلى تلك الذخائر الخطِّية التي تحفل بها خزائن المغرب العربي في شمال افريقيا. والذي أخذناه من الشعر وقرأه القارىء في ما مرَّ من القول، إنما هو نتف وقعنا عليها مبثوثة في بعض ما انتشر من تلك الذخائر لم يتعمد ناشروها أخذه في ما نشروه وإنما جاء مصادفةً، ولو تعمَّد أحد الاستقصاء لظفر بكنوز من ذلك.

كما لا شيء لدينا من شعر عبد الواحد بن أحمد وأبي الحسن الشياظمي، هذا الشعر الشيعي الذي أشار إليه محمد بن تاويت في ما تقدم من القول.

وعلى ما قال ابن تاويت: «فقد كان للشعر الشيعي سوق رائجة أيام السعديين لا سيّما منهم (المنصور) الذي زخر بلاطه بشعراء التشيّع، وكافأ شارح درر السمط(٣٤) بالآلاف على شرحه هذا».

وكلُّ ذلك يحتاج إلى توسُّعٍ في الدرس والبحث مما هو غير متيسَّر لنا.

ما آثر الدَّولة السَّعديَّة

لقد عاشت الدولة السعدية حتى سنة ١٠٦٩هـ = ١٦٥٨م شأنها شأن كل الدول أمثالها من مد وجزر، وقد بلغت أقصى ما بلغته في عهد أحمد المنصور (٩٨٦ - ١٠١٢هـ = ١٥٧٨ - ١٦٠٣م)؛ حيث تاخمت من الجنوب الشرقي بلاد مصر. وقد كان المنصور هذا يطمح إلى الوصول إلى الأندلس، بل إلى أن يقيم وحدة إسلاميَّة.

ويسجل لهذه الدَّولة أنها ماشت النهضة العسكريَّة في أوروبا، ولم تتخلَّف عنها في تجهيز الجيوش، فأنشأت الجيش النظامي الحديث لتظل أبداً على سلاحها حين يراد بها الشر كما أقامت أسطولاً حربياً قوياً إلى جانب أسطولها التجاري، كانت تحضر بواخرها من انكلترا وهولندا وقد تصنع محلياً بمساعدة فنِّيين أجانب. ووثّقت صلتها بالعالم الخارجي فارتاد ممثّلوها تركيا والشرق الإسلامي وهولندا والبرتغال وغيرها. وفتحت موانئها للتجارة الخارجيَّة، فبلغت هذه التجارة مبلغاً عالياً، كما قامت الصناعات أحسن قيام لا سيما صناعة السكر التي ازدهرت كل الازدهار، وقد انتقلت زراعة قصب السكر وصناعته في عهدهم من المغرب إلى بلدان أخرى لا سيما القارة الأمريكية بعد اكتشافها، كما انتقلت إلى جزر «الخالدات»[٣٥]، وكان السكر السعدي يصدّر في ما يصدّر إلى انكلترا. وفي العهد السعدي اعتمد المغرب على نفسه في صناعة المدافع في ترسانة مراكش، وفيها كان يذوّب النحاس لصنع المدافع. وقد اكتشف معدن النحاس سنة ٩٤٦هـ = ١٥٣٩م بجبل تنزار، كما صنعت المدافع من البرونز. كذلك تم صنع القنابل وبقي من العهد السعدي مدفع نقشت عليه كتابة بالعربية[٣٦].

وكان الملوك السَّعديُّون على نصيب وافر من المعرفة والثقافة يشجِّعون رجال الفكر ويُنشئون خزائن الكتب وينشرون العلم، وكان فيهم العلماء والشعراء.

وقد اشتهر الملوك السَّعديُّون بولعهم بالأدب، فقد كان محمد المهدي الشيخ يستظهر ديوان المتنبي، وكان لأحمد المنصور شعر كثير، كما درس الحديث والفقه والنحو واللغة والفرائض والهندسة والجبر وغير ذلك، وكان له أثر كبير في النهضة

الفكرية، وقد استجاز بعض رجال مصر، وألّف كتاباً في الشؤون السياسيّة والعسكريّة، وعلّق على عدة كتب في الحديث والتفسير وغيرهما. ويقول صاحب كتاب «المغرب عبر التاريخ»(٣٧) إنّه كان في نيّته وضع كتاب جامع لقصائد الشعراء من أهل البيت. كما اشتهر بجمع الكتب ووقفها، ولا يزال في خزائن «القرويين» حتى اليوم عشرات المخطوطات الموقوفة باسمه، وخزانة زيدان بن المنصور التي سطا عليها الأسبان وضموها إلى خزائن الاسكوريال من بعض ما تخلّف من كتب والده.

وقد أمر المنصور جماعة من العلماء بوضع العديد من الكتب، من ذلك شرح للألفيّة في مجلدين كبيرين يلخص فيه مختلف الشروح المتداولة للاستغناء عنها. وأمر زيدان بن المنصور الراهب الإيرلندي (انطون دوسانت ماري) بترجمة كتب من اللاتينية إلى الاسبانية التي كان يتقنها معظم الملوك السعديين لتترجم إلى العربية.

وبقيت خزائن زاخرة بالكتب ألحقت بعد ذلك بالمساجد الكبرى. ويرى بعض المستشرقين أن أول مستعرب هو من معاصري السعديين، وقد درس اللغة العربية في مراكش سنة ١٥٩٨م واسمه «اتيان هوبير (etienne hubert)»، وكان أول أستاذ للغة العربية في معهد الطب بباريس حين كان المقام الأول لابن سينا وابن رشد.

على أن في السعديين من هم في السوء مثل «المتوكل» في الاستنصار بالأجنبي، ومثل محمد المأمون وابنه عبدالله في الظلم وسوء السيرة.

## الهوامش:

(١) ظلت تحمل اسم آنفا حتى سنة ٨٧٣هـ (١٤٦٨م) حين احتلها البرتغاليون، فهدموها وبنوا مكانها مدينة جديدة سمُّوها باللغة البرتغالية بما تعريبه «الدار البيضاء»، وهي أكبر مدينة في شمال افريقيا يزيد عدد سكانها على المليونين.

(٢) مليلية: من أكبر ثغور المغرب، تقع على البحر المتوسط في منتصف الطريق بين وهران وسبتة. وهي اليوم جيب اسباني يقطنها أكثر من ٨٠ ألفاً من الاسبان وعدد قليل من المغاربة. وقد جعل منها الاسبان قاعدة عسكرية ومركزاً من أهم مراكز الصيد.

(٣) سبتة: أقرب ثغر مغربي إلى الشاطىء الاسباني بحيث لا تتجاوز المسافة بين الضفتين ١٦ ميلاً. وهي تقع على بعد ٦٠ كلم شمال تطوان. وهي أول مدينة استولى عليها البرتغال ثم استولى عليها الإسبان بعد ذلك ولا تزال في احتلالهم، فهي جيب اسباني في المغرب، ويسكنها نحو ٦٥ ألفاً من الاسبان ونحو ستة آلاف من المغاربة.

(٤) القصر الصَّغير: يقع على بعد ٢٤ كلم جنوب طنجة، بين سبتة وطنجة. وليس فيه اليوم سوى بقايا اطلال.

(٥) أصيلا: تقع على الشاطىء الأطلنطي بين طنجة والعرائش، على بعد ٤٩ كلم من طنجة.

(٦) السياسة والمجتمع في العصر السعدي.

(٧) تقع أزمور على ضفة أم الربيع قرب مصبه في المحيط الأطلنطي.

(٨) السياسة والمجتمع في العصر السعدي.

(٩) المغرب عبر التاريخ، ج٢، ص ٢٤٢.

(١٠) م. ن.

(١١) الترجمان المعرب، ص ٣٤٣.

(١٢) نزهة الأخبار، ص ١٠٥.

(١٣) درعة: مدينة وولاية خصبة في جنوب المغرب الأقصى وراء جبال الأطلسي، تقع شرقي إقليم السوس، ويخترقها نهر طويل يعرف بوادي درعة، يصب في المحيط الأطلسي بالقرب من رأس نون. وكانت ولاية درعة في العصور الوسطى الإسلامية محطة تجارية مزدهرة ولا سيما في واردات السودان من الذهب والفضة، كما كانت مركزاً علمياً اشتهر بعلمائه وزواياه، وناهيك بالزاوية الناصرية ومكتبتها الشهيرة. وإليها ينسب أبو زيد نصر بن علي بن محمد الدرعي والفقيه أبو الحسن الدرعي. وسكان درعة خليط من العرب وبربر صنهاجة، والحياة الزراعية معتمد سكان واحات درعة. وينحصر المجال الزراعي بواحات وادي درعة في الشريط الرسوبي الضيق الذي تكون على حفافي نهر درعة. ومن طرائف الشعر قول شاعر في درعة:

يطوف السحاب بدرعة كما ... يطوف الحجيج بالبيت الحرام
تريد النزول فلم تستطع ... لسفك الدماء وأكل الحرام

وقد كانت لها أهمية محدودة قبل العصر السّعدي في الثقافة والعلم، ولم تكن سوى منطقة زراعية مهمة، وبقيام الدولة السعدية صارت من مراكز النشاط الفكري وخرج منها العديد من العلماء المؤلّفين.

(١٤) المغرب عبر التاريخ، ط٣، ج٢ ص ٢٤٢.

(١٥) السوس: يطلق على ناحية كبرى من نواحي جنوب المغرب بين الأطلسين: الكبير والصغير في مساحة تقدر بنحو ٢٠ ألف كلم مربع. ويطلق هذا الاسم أيضاً على واد كبير ينحدر من الأطلسي الكبير ويصبّ جنوب أكادير في المحيط الأطلسي.

(١٦) محمد بن مبارك هو تلميذ الإمام الجزولي، وكانت له سلطة روحية كبيرة على سكان السوس وكانت له في «أقا» زاوية شهيرة.

(١٧) تارودانت: من أقدم مدن المغرب، احتلها المرابطون عند زحفهم عن المغرب إلى الصحراء، وحاصرها الموحّدون، وكانت شبه مستقلة أيام المرينيين. ويوجد فيها مسجد يعد من أعظم مساجد الشمال الإفريقي بني في عهد السعديين تبلغ مساحته ٢٥٠٠م$^2$، وأنشأ فيها السعديون معامل السكر الذي كانت تنتجه بمقادير وافرة. وقد اتخذها محمد المهدي السعدي في أول الأمر عاصمة له وسماها المحمدية واستقرّ بها عدد من الملوك بعده. تقع على بعد ٨٣ كلم جنوب أكادير و٢٤٥كلم جنوب مراكش عبر الأطلس الكبير.

تعدّ مدينة تارودانت من الحواضر التي لها ذكر ووجود فعّال في أغلب مراحل التاريخ المغربي، فهي تقع في طريق التجارة مع السودان الغربي ودول الصحراء الكبرى، وبها يقيم نواب الحكومات المركزية من الأمراء والخلفاء والقوّاد؛ الأمر الذي جعلها تكوّن حاضرة بلاد السوس الأقصى وعاصمتها التقليديّة.

ومع بزوغ فجر الدولة السعدية، طفت المدينة مرة أخرى على ساحة الأحداث، فكانت مهد الدعوة، ومنطلق الفتوحات، فنالها السعد بذلك، حيث جددت معالمها، وأسست بناياتها وحصونها، وشيدت منارات العلم والعبادة في جنباتها، فاستبدلت البلى والخرائب بحسن العمارة ونضارة الجنان والحدائق، وورد إليها مهرة العمال وأرباب الصنائع، كما نفقت فيها سوق العلم بتوارد مشاهير العلماء والقراء، وامتلأت مساجدها ومدارسها بالطلبة، فأصبحت منتدى الأدباء، ومقصد النجباء، فكان ذلك كله فاتحة عهد جديد في تاريخ هذه المدينة العريقة، حيث نشطت الحركة الفكرية والعلمية والاقتصادية بانتعاش السياسة.

وكما هو الشأن في جميع الحواضر، فإن التعليم بمدينة تارودانت يرتبط بالمساجد والكتاتيب وأشهر هذه المساجد ثلاثة:

- جامع القصبة، وقد يكون أول مسجد أسس بهذه المدينة، لأن القصبة السلطانية لها ذكر في العهد المرابطي والموحدي، ومن غير المعقول أن تخلو من مسجد. وإلى اليوم يُعدّ مسجد القصبة من المساجد الجامعة بالمدينة.

- ومسجد مجمع الأحباب، ويلي مسجد القصبة مسجد مجمع الأحباب، الذي يدعى في الوثائق التاريخية «بالمسجد الجديد»، تلحق به مدرسة عتيقة تلاصق مقصورة النساء إلى جهة الباب

الشمالي. وقد اندثرت هذه المدرسة اليوم، وأضحت مساكن حبسية. ومن ملحقات هذا المسجد أيضاً خزانة كتب عتيقة.

والجامع الكبير، ويقع الجامع الكبير في الجهة الشرقية من المدينة، وإليه تنسب الحارة القريبة منه، وحوله من جميع الجهات مساكن العلماء والطلبة والبيوتات الكبرى، وكل من دخله يعجب من اتساعه واتساق زخارفه.

ولا يعرف تاريخ بنائه، ولعل العمل الذي قام به محمد الشيخ السعدي هو تجديد بنائه وتوسيع جنباته...

يقول الدكتور محمد حجي عن عمل محمد الشيخ السعدي:

«وقد بالغ في زخرفته حتى أضحى أعظم وأفخم من جامعي المواسين وباب دكالة المستحدثين في ما بعد في مراكش.

(١٨) أگادير مدينة كبرى من مدن الساحل الأطلسي أسست قصبتها في أوائل القرن العاشر. واحتلها البرتغاليون سنة ٩١٧هـ ثم حررها السعديون، فأعادوا بناءها وشيدوا قصبتها الشهيرة التي كان يشرف الناظر منها على سهول السوس. وقد دمرها عن آخرها الزلزال في ٢٤ شباط سنة ١٩٦٠، فأصبحت أثراً بعد عين. ولكنها استعادت حياتها فأعيد بناؤها من جديد وأصبحت خلال سنوات من أحسن المدن الساحلية في المغرب.

(١٩) آسفي: تقع على الشاطىء الأطلسي. احتلها البرتغاليون مراراً خلال القرن العاشر الهجري وقامت بدور مهم في حركة طرد البرتغاليين من الشواطئ خلال العصر السعدي. كما كانت مركزاً مهماً للعلاقات التجارية بين المغرب وأوروبا خلال عهد السعديين. وظلت أهم ميناء في المغرب إلى أوائل القرن العشرين. وتعد اليوم من أعظم مرافئ صيد السمك في العالم وتجفيفه وتصديره إلى سائر أطراف المعمورة. وفيها أكثر من مئة معمل بـ«السَّردين». وفيها مدرسة بحرية لتخريج الضباط والفنيين البحريين. تقع على بعد ١٥٥ كلم من مدينة مراكش.

(٢٠) الوطاسيون (بنو وطاس) هم الذين كان لهم الحكم قبل السعديين.

(٢١) يقال له أيضاً محمد الشيخ، وأحياناً: محمد الشيخ المهدي.

(٢٢) مكناس، أو مكناسة الزيتون: من كبريات مدن المغرب. يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرون الهجريّة الأولى، وفي العهد المريني اتسعت عمارتها. وقد اتخذها المولى إسماعيل عاصمته لمملكته، وظلت عاصمة مدة نصف قرن.

(٢٣) تازة: من أقدم المدن المغربية تقع بين فاس ووجدة بين الأطلس المتوسط وجبال الريف، اتخذها الحسن بن إدريس الثاني مقراً حربياً له، ثم اعتنى بها عبد المؤمن الموحدي وخلفاؤه فجعلوها حصناً منيعاً. تقع على بعد ١٢٠ كلم شرق فاس و٢٥٥ كلم من وجدة.

(٢٤) تادلا: تقع على بعد ٣٠٠ كلم جنوب شرق البيضاء، وهي مركز زراعي على الضفة اليمنى لوادي أم الربيع.

(٢٥) المغرب عبر التاريخ، ط ١٩٩٣، ج٢، ص ٢٥٩.

(٢٦) أصيلا: مدينة صغيرة على شاطئ الأطلنطي بين طنجة والعرائش، وتقع على بعد ٤٩ كلم جنوب طنجة.

(٢٧) هذا النهر فرع من نهر اللكوس الذي يصب قرب العرائش.
(٢٨) توجد اليوم في المغرب جامعة باسم «جامعة عبد الملك السعدي».
(٢٩) هو أحمد شقيق عبد الملك الذي بويع في وادي المخازن بعد إعلان وفاة أخيه، غداة المعركة، ثم جدِّدت بيعته بفاس، وكانت بيعته فيها بعد مرور عشرة أيام على قدومه إليها. وقد لقب بالمنصور.
(٣٠) المغرب عبر التاريخ، الصفحة ٢٦٦ من الجزء الثاني، طبعة سنة ١٩٩٣.
(٣١) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.
(٣٢) هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد القشتالي ولد بقشتالة سنة ٩٥٧هـ وتوفي سنة ١٠٣٢هـ، اتصل بالمنصور السعدي فولاّه رئاسة الإنشاء في بلاطه. له كتاب «مناهل الصفا» في تاريخ السعديين، و «مدد الجيش» الذي ذيّل به «جيش التوشيح» لابن الخطيب.
(٣٣) هو أبو عبدالله محمد بن علي الهوزالي شاعر السعديين على عهد المنصور. نشأ في كنف الدولة السعديّة وكانت له مشاركة في الآداب والفنون، وكان متضلعاً في اللغة، بصيراً بنقد الكلام، وكانت له مكانة في الفتوى والقضاء الذي تولاه في صدر حياته بـ (بسكتانة)، وتوفي في أوائل القرن الحادي عشر.
(٣٤) درر السّمط: كتاب في سيرة الإمام الحسين عليه السلام ورثائه.
(٣٥) ricard, Hespéris, 1,2 - 1935 P.82.
(٣٦) ط ١٩٩٣، المغرب عبر التاريخ، ج٢، ص ٣٨٠.
(٣٧) ج٢ ص ٤٠٠.



***